فكاهات

رواية

الاختين [1]

لا يجهل القرآء ما كانت عليهِ الاسكندرية في نهاية شهر اوغسطس من سنة ١٨٨٣ من وقوف الاعمال واشتغال الافكار بحركة الدوارع الانكليزية من الخارج والجنود المصرية من الداخل وما كان ثمة من المذابح والمخاوف مما كاد يجعل تلك المدينة قاعاً صفصفاً . ومما زاد في وحشة المدينة مهاجرة الكثيرين من سكانهـا اذ كانوا يتدافعون الى البحر تباعاً هرباً من تيار ذلك البلآء الى ان يقضي الله امراً كان مفعولاً

الا ان كثيرين لم يتسنَّ لهم الرحيل بسبب قلة ذات اليد او الانهماك في احوالٍ خاصة ولا سيما ارباب العيال ممن لا يتيسر سفرهم الا بعد استعداد طويل . وكان في شارع العطارين مسكنٌ يقطنهُ رجلٌ يدعى بطرس ... وزوجتهُ وطفلان لهُ وكان بطرس منـاهزاً للخمسين من عمرهِ وهو رجل وقور الهيئة حسن الطلعة كريم الخصال كامل الصفات لم يستولِ على قلبهِ سلطان الهوى الا قُبَيل ذلك العمر فاقترن بفتاةٍ تنتسب اليهِ ورزقهُ الله منها ابنتين توأمين قبل الحادثة العرابية بقليل من الزمن . فلما اخذ القوم في

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

الرحيل حالت دون سفرهِ اقوى المثبّطات واهمها بقآء زوجتهِ على فراش نفاسها والطفلتان فلم يدرِ كيف يمكنهُ نقل الثلاث ولا سيما زوجتهُ وهي في مثل تلك الحالة ولما لم يجد بدًّا من البقآء سلّم امرهُ الى الله واقام يتوقع ما يجيئ بهِ القدر . ولما اشتدت الفتنة وتفاقم الهياج في المدينة اخذت الكرات تتطاير فيسمع لها دويٌّ عظيم يتبعهُ اعظم منهُ من سقوط الابنية ودكّ القلاع فوقع على زوجة بطرس رعبٌ عظيم وخافت على زوجها وطفلتيها واخذت تتسخط على نفسها لانها كانت هي السبب في تخلف زوجها عن السفر والتخلص من شر تلك النكبات فأثر ذلك في صحتها ولا سيما مع تواتر الرعب وارتفاع الصيحة في البلد ووجدت الحمى محلاًّ ضعيفاً في جسم تلك الوالدة المسكينة فتمكنت منها وقبل ان تهدأ الحال ويعود الأمن كانت قد غادرت دار الفنآء تاركةً زوجها والطفلتين . وكانت هذه الضربة الاخيرة اعظم مما يقوى بطرس على احتمالهِ فحنت ظهرهُ واذهبت رشدهُ ولبث حيران يقلب نظرهُ من جثة زوجتهِ الباردة الى طفلتيهِ ويذرف دمعاً مدراراً وهو لا يرى من يكلمهُ بكلمةٍ تدرأ عن قلبهِ الكسير ما يلقاهُ من اليم الاحزان

ولم يدرِ بطرس باي وسيلةٍ ينقل زوجتهُ الى المدفن ومن يقوم لهُ بهذا العمل فكان ذلك يزيد في حزنهِ وهمّهِ واخيراً ادخل جثة زوجتهِ الى احدى الغرف وتركها موسدة على السرير ثم اغلق الباب وخرج الى طفلتيهِ فاحتضنهما وجعل يبكي ولم يكفكف عبرتهُ حتى اخذت الطفلتان في البكآء ايضاً فدفعتهُ الغريزة الى استعمال ما يسكتهما بهِ وكان قد بقي في البيت قليلٌ من اللبن الذي كانتا تُرضعان منهُ فوضعهُ في زجاجةٍ وجعل يجرعهما منهُ شيئاً فشيئاً

الى ان ارتوتا ونامتا فعاد الى بكآئهِ ومضت عليهِ ثلاثة ايام على هذه الحـالة التي فيها اشد العذاب والبلآء. ولما لم يعد يحتمل البقآء وكانت الرائحة الكريهة تنبعث من غرفة الميتة عزم على مغادرة البيت فحمل الطفلتين وخرج واسعدهُ الحظ ان رأى عربة الصحة تنقل بعض الجرحى الى المستشفى ويحرسها ضابط من الفرسان فجثا امامهُ وطلب اليهِ ان ينقلهُ معهم وادركت الشفقة قلب الضابط فوقف العربة وادخل الرجل وابنتيه ولما بلغ الجميع المستشفى وافت الراهبات يلاقين مرضاهم ومن جملتهم الطفلتان فاخذتهما الرئيسة مع والدهما الى غرفة على حدة و بعد ان علمت قصتهُ حزنت على مصابهِ ووعدتهُ خيراً ثم ارسلت من استدل على جثة الزوجة المائتة فدفنوها واقام بطرس في المستشفى مع الطفلتين وكانت الراهبة تعتني بهما اعتنآء الام باولادها

ولم تمضِ مدةٌ طويلة حتى هدأت الاحوال واستتبّ الامن فخرج بطرس بابنتيهِ من المستشفى ولما كانت الراهبة عالمة بحالهِ نقدتهُ ما تيسر وزودتهُ بكتاب توصية الى احد تجار الانكليز واوصتهُ ان يأتيها بالابنتين كلما امكنهُ لتراهما وتطمئنّ عن احوال معيشتهِ. فودعها وكلهُ ألسنة ناطقة بشكرها وكان قد اكترى لهُ بيتاً صغيراً قبل خروجهِ من المستشفى عند امرأة ارملة وعدتهُ ان تعتني بابنتيهِ فانطلق اليهِ . واخذ من ليلتهِ يسعى ورآء الشغل فقصد التاجر المذكور وقدم اليهِ كتاب الراهبة فتناولهُ وقرأهُ ووعد بطرس بالخير ثم عينهُ صرافاً في محـلهِ فاقام في خدمتهِ . وكان بطرس لا يهمهُ الا الاعتنآء بابنتيهِ وقد رأى بهما سلوةً وعزآءً فكان لا يصدق ان يعود من شغلهِ فيحتضنهما الى ان تناما . وكان لم ينسَ وعدهُ للراهبة بزيارتها في كل

اسبوع فلما نشأت الابنتان ادخلهما بواسطتها الى مدرسة يومية حيث كانتا تتلقيان في النهار علومهما المدرسية وفي الليل الفضائل الادبية عن والدهما

وفي سنة ١٨٩٨ بلغت الابنتان الخامسة عشرة من العمر وكانتا قد انهتا دروسهما وكان بطرس قد حسنت احوالهُ المالية فاتخذ لهُ بيتاً حسناً واقامت الفتاتان فيهِ ترتبانهِ وعادت الاصدقآء الى زيارتهم فجعل بطرس يعود شيئاً فشيئاً الى هنآئهِ الماضي لولا كسر قلبهِ الذي يصعب جبرهُ . اما الابنتان فكانتا تجتهدان في استعمال كل الوسائط لراحة والدهما ورفاهيتهِ وكان اسم الواحدة على اسم والدتها سلمى واسم الثانية وداد

وكان من جملة المترددين على بيت بطرس نسيبٌ لهُ يقال لهُ سليم ... وهو فتًى في الحادية والعشرين من عمرهِ حسن الهيئة جميل الخصال كان قد مال قلبهُ الى سلمى فاحبها شديداً واكثر من زيارتها وقد وطن نفسهُ على الاقتران بها ولم تجهل سلمى ما اضمرهُ سليم فاستبشرت من ذلك بمستقبل سعيد غير ان الامر بقي ضميراً مكتوماً عند كلا الطرفين . اما وداد فانها منذ رأت سليماً في اول مرة شعرت بانعطاف قلبها اليه واشتداد محبتها لهُ الا انهُ كان معرضاً عنها لا يكاد يعيرها طرفهُ ولكن ذلك لم يكن ليضعف من حبها لهُ بل كانت تزداد شغفاً بهِ وميلاً اليهِ

ولما طال الامر على ذلك وهي لا ترى منهُ الا اعراضاً عنها وميلاً الى سلمى حدثتها نفسها ذات يوم ان تصرح لهُ ببعض ما عندها فانتظرت قدومهُ في المسآء ولما جآء جلس بقرب سلمى يحادثها وقد تفرغ لها بكليتهِ ووقف عليها جميع حواسهِ فرأت وداد ان لا امل لها في محادثتهِ تلك الليلة

فلبثت حيناً تساورها الهموم ثم نهضت فاستأذنت معتذرةً بان بها صداعاً اليماً يلجئها الى الرقاد ودخلت الى غرفتها حيث انطرحت على سريرها تفكر فيما عسى ان يكون . ولما انتصف الليل انصرف الزائرون وذهب كلٌّ الى رقادهِ ودخلت سلمى الى غرفتها حيث تنام وداد ايضاً ولكنها عوض ان تنام جلست الى مائدة في الغرفة وجعلت تتفكر وهي في حالةٍ قلقة . وبينا هي كذلك دعا انتباهها حركةٌ في سرير شقيقتها فنظرت ولما رأتها لا تزال مستيقظة قالت لها ألم تنامي بعد يا وداد . قالت لا ولا ارى انهُ يمكنني ذلك الآن . قالت اذا كان كذلك فهل لكِ ان تسمعي مني حادثة سرّية ونؤازريني برأيكِ ايتها الشقيقة . فاستوت وداد جالسة في سريرها وقالت هاتي ما لديكِ . فدنت سلمى وجلست الى جانبها ثم اخذت في الكلام فقالت

لا اخفي عنكِ يا شقيقتي ان سليماً كلما جآء يجالسني ويحادثني ولا ادري أمن معاشرتهِ اليومية ام من عوامل داخلية اراني قد ملت اليهِ و... واحببتهُ ولكن لم تكن محبتي لهُ الا كمحبتي لكِ غير اني كنت الاحظ انهُ يود مني غير ذلك مع انهُ لم يفه امامي بكلمةٍ في هذا الشأن . ولا اطيل الكلام على ما ذكرت بل اقول انهُ الآن بعد ان عزم على الانصراف وودع الجميع اتى فودعني ووضع في يدي هذه التذكرة وقبل ان يمهلني لانظر ما فيها اختفى فاتيت الى هنا وانا حيرى لا اعلم ماذا افعل أأعطي التذكرة لوالدي ام اقرأها ام اردها اليهِ . فقالت وداد لا ارى من الحكمة ارجاعها الى سليم بل يكون ضرباً من اساءة الادب ان تردّيها اليهِ قبل ان تعرفي ما فيها واما اطلاع والدي عليها فاظن ايضاً انهُ لا يليق الآن لانهُ لو شآء

سليم ان يطلعهُ على ما فيها لما سلمها اليكِ سرًّا وعلى كل حال ارى ان تقضي هذا الغلاف فتطلع على ما تتضمنهُ الرسالة ثم تفعل بحسبهِ . قالت سلمى اصبتِ ايتها الشقيقة ومع ذلك فلا اراني اقوى على تلاوة هذه التذكرة فخذيها واقرئيها انتِ . فتناولت وداد التذكرة بيدٍ مرتجفة وهي متشوقة ان تطلع على ما كتب محبوبها سليم وتخاف ان تجد في الرسالة ما يقطع حبل املها منهُ فتموت غمًّا . غير انها تجلَّدت وفضت الغلاف ثم اخذت تقرأ بصوت يرتجف وقلب يخفق فاذا في الرسالة ما يأتي

حبيبتي الوحيدة ومالكة فؤادي سلمى

لم اعد استطيع الكتمان فان حبكِ قد اضنى جسدي واضعف جلدي وغادرني ذا فكرٍ حائر وجفنٍ ساهر واحسب انهُ ان كان عندكِ عشر معشار ما عندي فهو كافٍ لان ترحمي شبابي الذابل وتنعشي حياتي المائتة بكلمةٍ من فيكِ اعلم بها انكِ تحبينني وانكِ لي . عدبني ان تمني عليَّ بهذه النعمة وانكِ تستولين على عرش قلبي الذي وقفتهُ لملككِ بل وقفت كل دقيقةٍ من وجودي لكِ فهذا القلب لا يضرب الاَّ لقربكِ وهذا الدم لا يجري في عروقي الا على امل الحصول عليكِ . انتظر منكِ كلمةً او اشارةً واحدة تحقق املي وانا في موقفٍ بين السعادة ان منتِ والشقآء ان ابيتِ فانتِ مخيرةٌ في الروح التي في يديكِ يا مالكة فؤاد محبكِ سليم

وكانت سلمى منهمكة في استيعاب الكلام فلم تنتبه الى اضطراب وداد وتغيُّر احوالها وبعد ان صمتت الاختان ساعةً وكلٌّ منهما تتبع سير افكارها قالت سلمى وما رأيكِ يا وداد . قالت ماذا تشعرين انتِ هل تحبين سليماً

وهل تودين ان يكون بعلاً لكِ . قالت سلمى انا لا افضل عليهِ احداً بل الحق اقول انهُ قد تملك قلبي من زمان وانا اسيرة هواهُ . فصمتت وداد ايضاً وهي تفكر وكانت تحب اختها محبة لا مزيد عليها فصممت ان تضحي نفسها في سبيل حظها كما انها لفرط محبتها لسليم لم تشأ ان تنغص عليهِ امنيتهُ فالتفتت الى اختها وقالت ارى الى تجييبهِ الى طلبهِ وتوصيهِ ان يُعلِم والدي بالامر قبل كل شيء ثم ان يجري فيهِ على طريقةٍ رسمية . قالت ذاك اليكِ فاجيبيهِ بما ترين فكتبت وداد ما يأتي

حضرة الخواجا سليم

اخذت تذكرتك وكنت اودُّ انها وصلتني من يد والدي فها انا اردُّها اليك لترسلها ثانيةً على يدهِ واذ ذاك اجيبك خيراً ان شآء الله

ثم دفعتها الى سلمى فوقَّعت عليها وبعد ذلك اوت كلٌّ من الاختين الى فراشها فنامت سلمى نوماً هنيئاً واما وداد فلم تغمض اجفانها وفي صدرها ما يمزقهُ وفي القلب ما يسيل دمآءهُ

ولما كان اليوم الثاني مرَّ سليم امام بيت بطرس وكانت سلمى على نافذة غرفتها فحياها فرمت اليهِ رسالتها ودخلت . وكان بعد ذلك ان جآء سليم الى بطرس وخطب اليهِ ابنتهُ سلمى فلم يمانع الاب بعد سؤال ابنتهِ لما كان يعلمهُ من صفات سليم وسائر احوالهِ ولم يمضِ الكثير حتى اقترن سليم بسلمى وكان لهما فرحٌ عظيم اشترك فيهِ الجميع حتى وداد فانها كانت تضمد جراحات قلبها بما تضمرهُ من الحب الصحيح لاختها وحبيبها سليم

ثم انهُ في اواسط سنة ١٨٩٩ ظهر في الاسكندرية مرض الطاعون

وخشي الجميع امتدادهُ فاتخذت الحكومة كل الوسائط الفعالة للوقوف في طريقهِ ومنع انتشارهِ واجتهد رجال الصحة في تلافي اخطارهِ وتشديد الاوامر القاضية بحجز المصابين في المستشفى الاميري . وازداد حرص رجال الصحة وتيقظهم حتى تعدَّوا الى الخشونة والفظاظة فكانوا اذا بلغهم خبر مريض هجموا على بيتهِ قبل تحقق مرضهِ فحملوهُ قسراً عن اهلهِ وضربوا من اعترضهم وساقوهُ بالقوة الى المستشفى ولم يُعلم أكان ذلك منهم طمعاً في جزآءٍ وعدتهم الحكومة بهِ ام لمجرد التهويل وتعظيم الامر

وكان قد مضى على اقتران سليم بسلمى تسعة اشهر وقرب وقت ولادها فشعرت ذات يوم بدنو الساعة فذهبت الى سريرها طلباً للراحة . واتفق ان طبيباً من اطبآء الصحة دخل البيت ولما رأى سلمى في سريرها زعم انها مطعونة فامر اهل البيت بالتيقظ وعدم الاقتراب منها الى ان ينهي امرها الى مجلس الصحة وتنقل المريضة الى المستشفى . فلما سمع اهل البيت ذلك هلعت قلوبهم لعلمهم بما اشتهر عن رجال الصحة من الغلظة في معاملة المرضى وكبر الامر على سلمى وخشيت ان هي نُقلت الى المستشفى في تلك الحالة ان يصيبها سوءٌ . ولما خرج الطبيب من البيت جعل الجميع يبكون وقد ايقنوا بحلول مصابٍ كبير ولم يعلموا باي طريقة يتخلصون من تلك البلية . ولما رأت وداد ما احاق باختها وصهرها من الغم والخوف قالت عليَّ انقاذكما من هذه الورطة . انكم تعلمون مشابهتي لسلمى فسأنام محلها في سريرها حتى اذا جآء رجال الصحة يأخذوني انا عوضاً عنها وعند الفحص يجدون اني صحيحة الجسم فلا يتأخرون عن ارجاعي اليكم وبذا ينتهي الامر . فاستحسن الجميع

رأيها ونهضت سلمى من سريرها واضطجعت وداد في مكانها . وبعد نحو ساعة قُرع الباب قرعاً عنيفاً وارتفعت الضوضاة من الخارج واذا بالطبيب داخل وبرفقتهِ اربعة رجال كانهم زبانية الجحيم فاندفعوا الى غرفة الفتاة وهمّ اهل البيت ان يعترضوا عليهم فاسكتوهم بالشتائم والكلام القبيح وهجموا على السرير فاختطفوا الفتاة وساروا بها الى العربة فاقفلوها وذهبوا . ولما بلغت المستشفى نزعوا عنها ثيابها والقوها في سرير كبقية المرضى وارسلوا لها العلاج لتشربهُ فتمنعت قائلةً انني صحيحة الجسم لا اشكو الماً فافحصوني . فقال الطبيب كلاّ فانكِ مصابة بالطاعون فلا بدّ من تجرعكِ الدوآء . وخافت وداد العاقبة فعزمت ان تصرح بما فعلت ولكنها خافت على شقيقتها فسكتت وكانت كلما صرحت لهم بانها صحيحة الجسم قام الطبيب يوبخها ويعنفها ويجبرها على اخذ الدوآء . وكانت وداد في اشد الخوف والضيق ولا سيما بعد انقضآء اليوم الاول والثاني وكانت لا تذوق قوتاً ولا يسمح لها بغير العلاج . ولما جآء اليوم الثالث سألت الطبيب عن يوم خروجها فقال ان بقيتِ حيةً فلا تخرجين قبل شهر . فلما تحققت ما وصلت اليهِ وادركت الهوة العقمية التي القت بنفسها اليها خارت قواها وايقنت بدنوّ الاجل . وكان قد اثر فيها الخوف وعدم القوت فضعفت صحتها وفقدت قوتها واخذت في التأخر يوماً عن يوم ولما شعرت باقتراب الساعة الاخيرة طلبت ورقاً فكتبت الى صهرها سليم مايأتي

حبيبي سليم

كنت اود بل كنت اشتهي الموت قبل الآن ولكن الله ابقاني الى

هذا الوقت لاذهب فدًى عن شقيقتي سلمى ولا اقطع حبل سرورك ولكن لا بد قبل موتي من اطلاعك على امر طالما عذبني كتمانهُ . احببتك يا سليم محبة الروح للروح وعبدتك في ليلي ونهاري فانك سلبت فؤادي واسرتني ولم تطلق اسري يا قاسي. بل ما لي ولهذا الكلام المؤثر اني لم اكتم خبر حبي الا رغبةً في تمام سعادتك وسعادة شقيقتي فليهنئكما الله وانما اعترفت لك بهِ الآن لأخفف بعض ما يثقل على قلبي غير اني اناشدك الله ان لا تطلع سلمى على شيءٍ منهُ . والآن قد اقتربت النهاية فسأستريح في القبر الذي تدفعني اليهِ ايدي هؤلآء الاطبآء الظلمة فهم ليسوا بمجلس صحة وانما هم قضاة الموت . الوداع ايها الحبيب . عزّ والدي الشيخ وشقيقتي واذا عرفتم قبري فزُر ضريحي وان شئت ان تكافئ محبتي فامطر على ضريحي دمعةً واحدة فبها تطفئ نار الحب المتأججة في صدري واستودعك الله محبتك الشقية

وداد

ولما جآء الطبيب في اليوم الثاني رأى للحال على وجهها علامة الموت فاستحلفتهُ ان يوصل كتابها الى سليم ولما وعدها وحلف لها ان يقضي الامر تبسمت ثم شهقت وفاضت روحها

ولما وصل الكتاب الى يد سليم اسرع الى المستشفى واستخبر عن وداد فوجد انها قد دُفنت منذ الصباح فبلّغ خبر الوفاة الى زوجتهِ ووالدها فندبها الاب وبكتها الاخت ولم يزل كتابها في يد سليم يطالعهُ كل يوم ويزور ضريحها حيناً بعد حين وهو يترحم على شهيدة الحب والوفآء